مركز دراسات المعرفة والحضارة

سلسلة حوارات | 2020

التنوع الثقافي وإمكانات تعزيز السلم العالمي

حوار مع:

الأستاذ الدكتور خالد حاجي

كاتب وأستاذ باحث

بلجيكا

حاوره:

- د. الحسن حما
- د.عبد الله أخواض

جميع الحقوق محفوظة © 2020

All rights reserved © 2020

لجنة الإعلام والتواصل

بين يدي الحوار

يقدم الأستاذ الدكتور خالد حاجي منظورات فكرية وفلسفية ومنهجية في تحليل الظواهر، تؤشر على أسلوب جديد في النظر والتوقع، وميلاد نموذج من النخب الثقافية في المغرب المعاصر؛ بأفق مغاير ومستوعب للتحولات الجارية على المستوى الوطني والإقليمي والعالمي، فلسفة وقيماً ونظماً، وهو ما منح له القدرة على إنجاز قراءات تركيبية لما يحدث، بعقلية منفتحة جمعت بين منهج التأمل الفلسفي المبني على مرجعية الوحي، وغنى التراث العالمي الإنساني، والتفكير العملي في القضايا الماثلة أمامه، والموجهة للإنسان في كدحه المتواصل مع ضنك الحياة.

يشهد العالم تحولات متسارعة لم تعد ترحم الشجر والحجر أو يشعر معها الإنسان بلطف ورحمة، أنتجت تكاثر الأنواع الهجينة بتعبير الباحث الناقد الأمريكي في علم الاجتماع إيمانويل والرستاين، أو كائنات نصف بشرية ونصف آلية، فقد معها الإنسان كينونته وبعض خصائصه الفطرية، وهو ما يستدعي التفكير في تجاوز المقولات الكبرى التي أطرت مسيرة العلم وفلسفته، وكل الأنساق التي اهتمت بالإنسان في أفق استعادة الجزء المغتال في المعرفة المعاصرة (المعنى والقصد).

فلم يكن نقد العلم وأنساق المعرفة التي أنتجها الإنسان وما يزال رفضا لها أو تنقيصاً من أهميتها، إنما احتجاجا على الوضع الذي صنعته، أو أريد لها أن تصنعه في ظل الصراع القائم بين المتنازعين على السلطة والمال، وثروات الطبيعة، الضحية الأولى -بتعبير البير كامي- في هذا الصراع هو الإنسان. وهو ما كشفت عنه أزمة وباء كورونا الذي أصاب الجميع ولم يستثن أحداً من العالمين، فأعاد ترتيب ما قسمته النيوليبرالية ومشتقاتها.

لقد أخذ أهل التخصص من الأطباء وعلماء الأحياء والبيولوجيا، حيزا من الاهتمام والتبجيل، نظير صنيعهم، وما يقدمونه من جليل الخدمات، وهذا طبيعي جداً لتوافق تخصصاتهم مع طبيعة الأزمة، لكن هذا لا يكفي في نظر أهل الفكر والاجتماع، وتخصصات أخرى، لأن الأزمة بنيوية تختلط فيها التحديات، وتتشابك فيها العوامل ولا يقل فيها أهل الفكر والتأمل الفلسفي والديني شأناً للتعبير وإصدار وجهات النظر، ومنظوراتهم فيما يحدث ويجري، واستشراف ما يستقبل من الأيام.

في هذا السياق الذي شرحنا بعضا من عناصره، ولمزيد من التدقيق والتحليل، يستضيف موقع مركز دراسات المعرفة والحضارة الأستاذ الدكتور خالد حاجي، وهو أستاذ باحث خبير بشؤون الفكر الإسلامي وقضاياه الأساسية، والفكر الغربي وأسئلته المتدفقة التي تقذف به حضارته السائلة -بتعبير زيجمونت باومان- فهو متعدد الاهتمامات، التي تخترق الإنسان والجغرافية (السلم، العلمانية والتعددية، والعولمة، أوروبا والإسلام وحوار الأديان وفض النزاعات والتصالح، وتدبير الاختلافات ...الخ). شديد الحفر في التراث العربي الإسلامي على مستوى القضايا التي يعالجها، بأفق مؤسس وبنائي للعلاقة بين الذات والآخر. وهو ما يمنح للحوار معه دلالات خاصة، وهي مناسبة كريمة للتداول المعرفي حول قضايا الواقع

المعاصر، وتشابكاتها المعقدة. وهو أيضاً رئيس منتدى بروكسيل للحكمة والسلم العالمي.

نرحب بكم دكتور خالد في هذا الحوار في موقع مركز دراسات المعرفة والحضارة، والذي نتمنى أن يكون لبنة للتواصل المثمر في المستقبل القريب.

المحور الأول: كورونا مقدماته وتداعياته.

نستهل معكم دكتور خالد هذا الحوار بمستجدات الوضع العالمي، وهو واجب الوقت بلغة الفقهاء، الأمر يتعلق بما عرف بوباء كورونا "كوفيد 19" وإفرازاته على مستويات متعددة، والنقاش الذي صاحبه.

س1: أغلب من تحدث عن أزمة كورونا من فلاسفة الغرب، -تشومسكي، هابرماس إدغار موران، الان تورين...وغيرهم- اعتبروها طبيعية بالاستناد إلى المقدمات الكبرى التي مهدت لها، والتشوهات التي أفرزها سياق العولمة والشركات العابرة للقارات، لهذا لم يكن الأمر مفاجئاً لهذا العقل. كيف تنظرون إلى هذا الأمر؟ في رأيكم ماهي المقدمات الثقافية والفكرية لهذه الأزمة؟

ج. كتب سيغموند فرويد في ثلاثينيات القرن الماضي كتابه الشهير عن القلق في الحضارة (*Das Unbehagen in der Kultur*). وهذا القلق الذي تحدث عنه فرويد تضاعف مع الألفية الجديدة، ليصبح من أكثر الخصائص الملازمة لنا، حتى صرنا نكاد لا نُعرف ولا نُنعت إلا به. فمع بداية الألفية الثالثة كثر الحديث عن أنواع جديدة من الذكاء، من قبيل ذكاء السرب (*Swarm intelligence*)، والذكاء الاصطناعي (*Artificial intelligence*)، وغيرها من أنواع الذكاء، إلى أن وصلنا إلى ما أصبح يعرف بالذكاء الفائق أو الخارق (*Super intelligence*) وقد كان لأنواع الذكاء هذه دور كبير في توريث البشرية شعورا قويا بأن مصير الإنسان لم يعد بيده، بل بيد شركات تكنولوجية، تتحكم فيه كما تشاء .

ثم إن وتيرة التطور السريعة التي أصبح يشهدها العالم على امتداد العقدين الأخيرين جعلت الإنسان يشعر بفقدان السيطرة على كل مناحي الحياة. وهذا ما فاقم هواجسه وتوجسه من المستقبل، وزاده شعورا باقتراب وقوع القوارع والكوارث. حتى أن أمين معلوف ذهب إلى كتابة (غرق الحضارات *Le naufrage des civilisations*) معبراً عن شكه في قدرة زعماء العالم اليوم على تجنيب الحضارة الإنسانية الأفول والانهيار. كثير من المتابعين لشؤون البيئة ما فتئوا يحذرون، من جانبهم، من مغبة «الغزو البيولوجي *Bio-invasion*» وينبهون إلى مخاطر أنواع العلاج التي تضعف مناعة الإنسان وتفقده القدرة على مقاومة أبسط الفيروسات.

الأخطر من كل هذه الأمور مجتمعة هو انهيار منظومة القيم التي كانت ترعى الحقيقة، بحيث دخلنا اليوم مرحلة تاريخية أصبحت يتحدث فيها عن «نهاية الحقيقة»، فضلا عن «نهاية النظرية»، و «نهاية الخبرة». إن اللَّبَسَ الحاصل اليوم بين الحقيقة وضدها، وبين النظرية وضدها، وبين الخبرة وضدها، أدخل العقل في متاهات صَعُب عليه الخروج منها. هذه النهايات تؤدي إلى فقدان الثقة في المؤسسات التي ترعى الحقيقة والنظرية والخبرة، وهذا ما ينتج عنه نكوص خطير إلى أشكال غريبة من الاعتقاد والتدين والدجل. لم تزدنا وسائل التواصل الاجتماعي، مع كامل الأسف،

إلا تيها، عوض أن تفتح أمام عقولنا فضاء معرفيا ووجوديا جديدا، ذلك أن التواصل أصبح هدفا وغاية في حد ذاته. لم نعد نعنى بتوصيل الأفكار؛ بل صرنا نحرص على استعراض الذوات استجداءً لإعجاب الآخرين .

هذا غيض من فيض من الأمور التي تجعلنا نعيش قلقا وجوديا كبيرا، وتورثنا حالة شعورية تلقي في روع الإنسان أن كوارث ستقع .

س2: في سياق ما عبرتم عنه في بعض مقالاتكم المنشورة حول أهمية الدرس المعرفي القائم على التأمل والتفكير العملي، هل يمكن الحديث عن تحولات قادمة في عالم ما بعد كورونا وضرورة بناء مراجعات موازية، أم أن الأمر مجرد مبالغات ادعاءات لا أثر مستقبلي لها في الواقع؟

ج. لقد قلت بأن مقولة «ما قبل كورونا وما بعدها» هي مقولة سجنت العقل وجعلته يشيح بوجهه عن أسئلة جوهرية أخرى. كورونا هي في واقع الأمر حدث عابر لا اعتبار له، تفترصها فرصةً وتنتهزها نُهزةً استراتيجياتٌ كبرى بغرض تسريع وتيرة التحولات وتحريك العالم وجهة أنماط جديدة في «التحكم» و «الحوكمة»، كما يقال. نحن بصدد الخروج من عالم ترتبط فيه مؤسسات الحكم بالسيادة على أحياز جغرافية، نحو عالم جديد تحكمه تكنولوجية عابرة لهذه الأحياز. القوة اليوم في يد أنظمة تملك القوة والتقنية والذكاء الاصطناعي للمزاوجة بين الوجود الأصيل، فوق الأرض، والوجود «المبرمج»، في فضاءات افتراضية .

السلاح الافتراضي الآن أصبح أفتك من الأسلحة التقليدية، وهذا ما أصبح يستدعي إعادة كتابة «وثيقة جنيف»، الوثيقة التي لا تكفي اليوم للتعامل مع أنواع الدمار التي يخلفها هذا السلاح. كما أن العلاقات الدولية اليوم بصدد الخروج من مرحلة تاريخية كان يُمنَح للدولة فيها حق الرد على أي اعتداء على سيادتها يأتي من خارج حدودها الجغرافية ومجالها الترابي؛ باتجاه مرحلة جديدة يصعب التمييز فيها بين العدوان المادي الذي يقترف بواسطة جيوش نظامية، وبين عدوان افتراضي رقمي لا يتقيد بفضاء جغرافي ولا صلة له بالجيوش النظامية. إن ارتفاع الحاجز بين الجيوش النظامية والفرد القابع وراء حاسوب يستدعي إعادة صياغة العلاقات الدولية على قاعدة قانونية جديدة. هذا ما جعل الولايات المتحدة الأمريكية تذهب باتجاه مراجعة التزاماتها داخل حلف النيتو مثلا .

باختصار شديد، يمكن القول إننا بصدد الخروج من العالم الذي ورثناه بعد الحرب العالمية الثانية، ومن الحداثة وما بعد الحداثة، باتجاه عوالم جديدة لم نستوعب بعد حقيقتها. هذه التحولات، وغيرها، لا علاقة لها بكورونا. لقد كانت كورونا، بالنسبة للساهرين على شركات التكنولوجية الكبرى اليوم، فرصة لاختبار مدى جاهزية العالم للانتقال إلى حوكمة جديدة تدير شؤونه عن بعد.

س 3: اعتبرتم الحجر الصحي فرصة ثمينة لم تظفر بها الإنسانية من قبل، لإعادة التفكير والتأمل والخروج من الصمت إلى الصوت، من السكون إلى الحركة. ماذا تقصدون بهذا التحول وهذه الثنائية؟ وما عمقها الفلسفي في هذه الحظة؟

ج. الإنسان لا يأمن أبدا من الوقوع في ضروب كثيرة من الغفلة، ولذلك فهو في أمس الحاجة إلى الاختلاء بنفسه من حين إلى آخر، عسى أن ينعتق من الالتزامات التي تكبله في وسطه المجتمعي، وتحجب عنه رؤية آفاق وجودية أخرى، وتحول دونه ودون تمثل طرائق أخرى في الحركة والسعي، عسى أن يصحو فيلتفت إلى الأبعاد الضرورية للوجود.

الخلوة في أصلها هي مطلب الحكماء حين يكثر اللغط وخطل اللسان، وحين يعم الشعور بأن حركة الإنسان صارت غير مسددة؛ حينها يصبح من الحكمة أخذ مسافة من أنواع الخطاب السائدة، ثم النأي بالنفس عن الركض وراء نفس الغايات التي قد «تفت أعضاد الورى»، كما يقول الشاعر، دون أن تدنيه من المعنى. الخلوة تعلمنا كيف نخرج من الصمت إلى مضمار الصوت، وكيف نخرج من السكون إلى مضمار الحركة. الخلوة ضرورية لكل طالب لليقظة في الكون، أي حالة من الوعي بالأبعاد التي تتحقق معها غايات الإنسان الكبرى في الوجود.

في «هكذا تكلم زراديشت» للفيلسوف الألماني نيتشه، إشارات جميلة إلى دور الخلوة في شحذ نظر الإنسان وتجديد وعيه بأبعاد يفوته التنبه إليها وهو في خضم الحياة المجتمعية اليومية. قبل نيتشه نجد في مؤلف بن طفيل «حي بن يقظان» إشارة إلى أن في اختلاء الإنسان بنفسه ما يوصل إلى الحياة واليقظة، ويدرأ آفة موت الحواس والغفلة. كما نجد أن «الشامان»، أو الحكيم عند القبائل الآسيوية والهنود الحمر هو من يخلو بنفسه في قمة الجبل فلا يهبط منه إلا وفي جعبته ما يجدد به حلم القبيلة، أو ما يمكن أن نقول نحن بلغة عصرنا، ما يتجدد معه المشروع المجتمعي.

مع كامل الأسف، الخلوة في زمننا الرقمي صارت شبه مستحيلة. نحن ندخل بيوتنا لننعزل عن الآخرين جسديا، لكن التكنولوجية الحديثة، بما توفره من وسائل للتواصل، شرّعت أمامنا أبواب الكلام إلى درجة أصبح الإنسان عندها «يُصوِّت» أكثر مما ينصت. إن الإنسان ليصاب بالذهول أمام الكم الهائل من الوعظ الذي أصبح عائقا يمنع التأمل. إن وسائل التواصل الحديثة تساهم في حل عقدة ألسنتنا إلى درجة الهذيان الذي لا يزيد المتلقي وضوحا ذهنيا ولا صفاء روحيا. إن هذه الوسائل تساهم حقيقة في توريث الإنسان قلقا يفوق ما كان فيه من قلق وهو خارج البيت، يزاول حياته الطبيعية.

عند التأمل، نشعر بأن الخلوة التي فرضها علينا اليوم فيروس كورونا، تحولت إلى فضاء عمومي رقمي تتحكم فيه الخوارزميات. فلا عجب أن يشعر المتأمل في وضعنا اليوم أن التكنولوجية تفوت علينا فرصة الاستفادة من الخلوة لتصويب الخطاب وترشيد الفعل الإنساني.

> هناك جهل بمكامن القوة في التراث، يساوقه جهل بمكامن الضعف في الحداثة.

المحور الثاني: الثقافة الإسلامية وتحديات العولمة.

تعيش البشرية تحت وطأة خوف شديد جراء جائحة وباء كورونا المستجد (كوفيد19)، الذي خلف تحولات سريعة التغيُّر على أصعدةٍ شتَّى، تهدد نمط الحياة الإنسانية والاجتماعية بكل أبعادها، ولها الأثر الكبير على الاقتصاد والسياسة والثقافة والقيم

والدين. وقد عزز هذا الوباء عودة قوية للنظريات التي تؤكد أزمة العولمة والحداثة وكل المنظومات المؤطرة لها وبلوغ مداها، وهو ما كشف عن أزمة الأسس المعرفية المؤسسة للنموذج الحداثي، وما بعد الحداثي الغربي (نيوليبرالي) المتسم بالعنف ضد الإنسان، وكينونته، لصالح الاقتصادي، وبأعمال التطهير التي يمارسها ضد المجموعات الحضارية الأخرى.

س4: باعتباركم من المشتغلين بمداخل بناء الثقافة الإسلامية وتجديدها، في نظركم ما هو جوهر التحدي الذي يواجه هذه الثقافة اليوم في علاقتها مع أسئلة الهوية وتحديات العولمة؟

ج. أكبر تحدي يواجه الثقافة الإسلامية اليوم هو تحدي التمثل الصحيح للأشياء، للذات وللغير. يخيل إلى أن كثيرا من الناطقين باسم هذه الثقافة اليوم يصدرون عن قاعدة فكرية ونظرية لا علاقة لها بروح العصر، يجيبون عن أسئلة طرحت في سياقات ثقافية وحضارية ماضية. هناك جهل بمكامن القوة في التراث، يساوقه جهل بمكامن الضعف في الحداثة. لا شك أن التراث غني ومفيد، لكننا من فرط عجزنا اليوم، أصبحنا نضع أنفسنا رهن إشارة هذا التراث، نخدمه عوض أن يخدمنا في واقعنا، همنا الأكبر هو تدريب الأجيال الجديدة على الانخراط في محاور الاستقطاب التي أنتجها الأقدمون. والواقع أن هذه المحاور لم تعد تنتج معرفة، ولا تحرك عقلا .

كما أننا نختار من أسئلة الحداثة ما نستطيع الإجابة عنه، غالبا ما نختار أسئلة متعلقة بالأخلاق، نحسب أننا قادرون على إعطاء العالم دروسا في الأخلاق. وهذا هو الوهم بعينه. الحاصل أن واقع المسلمين لا يؤهلهم لتخليق العالم أو الحداثة أو ما بعد الحداثة. كل المحاولات في هذا الباب هي عبارة عن إنشاء بلاغي متماسك وتأصيل لمقولات جديدة في تاريخ المسلمين ونصوصهم المقدسة. هذا التماسك البلاغي وهذا التأصيل يساهم في نفي الأجيال الصاعدة من واقعهم التاريخي، عوض تأهيلهم لبلوغ السقف الأخلاقي الذي يتيحه عمليا العالم الحديث، ثم بعدها النهوض لتجاوز هذا السقف. قد يتوهم الإنسان أن الحداثة تخلو كليا من الأخلاق، والواقع أن في الحداثة أخلاق، هي التي مكنت المجتمعات من تحقيق قدر كبير من التماسك والتعايش والتطور على مستويات كثيرة. لن ينكر فضل الحداثة في هذا الباب إلا جاحد .

إن كثيرا من الحداثيين هم أسرع إلى نقد الحداثة منا، بل إننا لم نتعلم نقد الحداثة إلا منهم. كما أن كثيرا من المسلمين هم أسرع من غيرهم إلى جلب مقابح الحداثة ومعايبها.

التحدي هو كيف نؤهل الأجيال إلى الارتقاء عمليا في سلم الأخلاق لبلوغ السقف المنظور في الواقع التاريخي، في العصر. بعدها يمكننا أن ندعي القدرة على تخليق العالم الحديث. أما حين نكتفي بالحديث عن الأخلاق، حديثا جميلا من الناحية البلاغية، مترابطا متماسكا من الناحية المنطقية، فهذا أمر يدخل في الوعظ. وما نجهله هو أن كثيرا من الحداثيين هم أسرع إلى نقد الحداثة منا، بل إننا لم نتعلم نقد الحداثة إلا منهم. كما أن كثيرا من المسلمين هم أسرع من غيرهم إلى جلب مقابح الحداثة ومعايبها. الأمر أعقد من أن يقرأ قراءة «هوياتية»، فنجزم بأن الأخلاق ترتبط بالمسلمين، واللا-أخلاق يرتبط بغيرهم. المجتمعات الحديثة ليست كتلة متجانسة، كما أن المجتمعات الإسلامية ليست كتلة متجانسة .

الهوية فخ كبير، وحجاب نختفي من ورائه، بغرض التنصل من مسؤولياتنا الأخلاقية في الكون. قد يتباهى إنسان غربي، وهو أكثر الناس تخلفا وجهلا، بانتمائه إلى الحداثة، يحسب أن هذا الانتساب يقدمه، والواقع أنك لو نظرت إليه نظرة فاحصة لوضعته في مراتب متدنية من ناحية التمدن والتطور؛ كما قد يتباهى المسلم بانتمائه للإسلام، يحسب أن هذا الانتماء يعفيه من العمل، والحاصل أنك لو نظرت إليه نظرة فاحصة لوجدته من أكثر الناس تخلفا من الناحية الأخلاقية. الهوية والانتساب والانتماء فخ كبير؛ الهوية عند التحقيق هي ما نصنع ونفعل ونعمل، وليس مجرد انتساب. والهوية كذلك، كما قال الشاعر محمود درويش، هي «ما نُورّث، لا ما نرث»

نحن نرث العلوم الإسلامية كتراث، ولكننا نعجز عن أن نجعل هذا التراث يساهم في تحريك رحى العلم في الواقع، ذلك أننا نغفل أن هذه العلوم لم تكن أبدا علوما إسلامية صرفة، مقطوعة الصلة بأحدث العلوم في عصر المسلمين الأوائل. التحدي اليوم هو كيف نخلص التراث مما يعلق به من «علوم الآلة» التي انتهت مدة صلاحيتها. المسلمون الأوائل كانوا مبدعين، تفاعلوا مع الوحي من جهة، ومع أحدث منظومة علمية منطقية في زمانهم.

لقد توسلوا بالمنطق الأرسطي لبناء منظومة علمية أنتجت معرفة وأهلت العقل البشري لاستشراف «علوم آلة جديدة *Organum Novum*» لكننا اليوم، من فرط الكسل، نركن إلى ضروب من تقديس التراث، نقف عاجزين عن تمحيصه بغرض تجاوز ما يعلق به من علوم عصر المسلمين الأوائل وأجهزتهم المفاهيمية. وطبعا في هذا ذم لنا، لا لمن سبقنا. هم كانوا أقدر على استيعاب علوم عصرهم، منا نحن اليوم على استيعاب علوم عصرنا. نخلط بين العلم والهوية، نخشى أن تضيع. والحاصل أن العلوم لم تكن أبدا «إسلامية» خالصة كما يحلو للبعض أن يتصور .

نقطة قوة الحضارة الإسلامية، ونقطة قوة كل حضارة، كانت تكمن في قدرتها على الجمع بين «المغلق والمطلق»، أو بين الانغلاق والانفتاح. ما صنع قوة المسلمين في فترات تاريخية ماضية هو إرساؤهم لمسلسلين اثنين: الاستعراب والاستعجام. العربي كان يستعجم والأعجمي كان يستعرب. حين تكف الحضارة عن الاشتغال وفق هذين المسلسلين، تستغلق على ذاتها، وتبلغ ما يسميه ابن خلدون بـ«نقطة الوقوف» في تاريخ الأمم .

بهذه الاعتبارات يمكننا القول إن نقد الحداثة ومنطق العولمة وما بعد الحداثة هو نقد يصح من بعض الوجوه، ولا يصح من وجوه أخرى. وما أحوج الباحثين الشباب إلى التمييز بين هذه الوجوه.

س5: كيف تسهم الثقافة الإسلامية في حل تلك الأزمات المعاصرة؟

ج. لا شك أن للمسلمين رصيدا روحيا وحكميا كبيرا، قد يُمكّنهم من المساهمة في كبح جموح العالم الحديث. لكن حاجزا كبيرا يحول بين الثقافة الإسلامية وبين هذه المساهمة، ويكمن هذا الحاجز في الاعتقاد السائد في قدرة المسلمين على ترشيد أمور العالم وتسديد أخلاقه لوحدهم، بعيدا عن التفاعل مع الإرث الحكمي للشعوب والثقافات والديانات الأخرى. أصل المشكلة يكمن في لفظة «مساهمة» التي غالبا ما تحمل على معاني غير صحيحة. الثقافة الإسلامية مطالبة

بإقرار مبدأ التعارف الذي هو من صميم المبادئ التي تقوم عليها، والتعارف يفيد الاعتراف بوجود الآخرين. كما أنه من الضروري إقرار مبدأ ثاني، هو كذلك من المبادئ التي تدخل في صميم هذه الثقافة، ألا وهو مبدأ «تتميم مكارم الأخلاق».

نحن نجد في الثقافات الأخرى والأحياز الحضارية الأخرى مظاهر عظيمة من التخلق، نكاد لا نحلم بها في واقعنا الإسلامي المعاصر، كأفق منظور. كثيرا ما نجد أنفسنا أمام مثل هذه المظاهر نهرع إلى «الأسلمة»، ونحن لا نعي ما نقول. إن مصدر قوة الثقافة الإسلامية كان دائما في دعوة الآخرين إلى «كلمة سواء»؛ لا في الاستعلاء عليهم. إذا كانت هذه الثقافة تستقي مبادئها من الإسلام، فالإسلام لا يقر أبدا مبدأ الاستعلاء، بل يسعى إلى انفتاح الثقافات على بعضها البعض. قد تكمن مساهمة المسلمين العظمى في حل معضلات العصر في العمل بمبدأ «التعاون على البر»، درأ لآفة الاشتغال بمبدأ «صراع الحضارات» الذي يختزل الإنسانية في هويات محكوم عليها بالتصارع لاختلاف في الماهيات. القرآن الكريم يجعل الصداقة والعداوة مناط أفعال، لا ماهيات. فالدفع بالحسنة كفيل بأن يخرج العلاقة من العداوة المستحكمة إلى الصداقة الحميمية.

المحور الثالث: الوجود الإسلامي بالغرب، وتحدي الاندماج والتعاون بين الثقافات.

طبيعة لغتكم العلمية والأكاديمية، وخبرتكم في العلاقات بين الغرب والإسلام تمنحكم القدرة على تقديم منظور مستقبلي لعلاقة الوجود الإسلامي أو ما سميتموه بالاختلاط بين الهويات في الغرب، وتحدي الاندماج، وقد برزت في هذا الصدد رؤى حول عدد من هذه التحديات التي تعترض التعايش الاجتماعي للأقليات المسلمة خاصة مع تنوع خطابها الديني ومفارقته في بعض الأحيان للقيم الأوروبية والغربية بشكل عام.

س 6: دكتور خالد، سرعت أحداث وباء كوفيد19 من الإشكالات البنيوية للعقل الثقافي الغربي، وأسسه، هذا العقل الذي تباهى بإنجازاته، حين انتصر على اللاهوت، ولم يعد يؤمن بغير المرئي والمادي المحسوس، لكن الأزمة أعادت الاعتبار للخفي في كيان الإنسان، وللحوار والانفتاح بين الثقافات، وتقلص مساحة الخصوصية على حساب الكونية والمشترك. كيف تنظرون إلى هذا التحول؟ وما هي في نظركم أبرز التحديات التي تعترض اندماج الأقليات المسلمة بأوروبا؟ وكيف يمكن أن يساهم تجديد الخطاب الديني بأوروبا في تجاوز هذه التحديات؟

ج. ليس من حاجة تعدل حاجتنا إلى تجنب الأحكام الجاهزة، والمقولات المختزلة. القول بأن العقل في الغرب انتصر على اللاهوت، هذا فيه مبالغة واختزال لحقيقة متحركة في قوالب جامدة. الحضور المسيحي في المؤسسات الأوروبية حضور قوي، وتأثيره في مضمار صناعة القرار ليس بالتأثير الهين. الغرب أقر، منذ معاهدة فستفاليا (1648)، توازنات بين الديني والسياسي. دخلت المجتمعات فترة سميت بـ «استراحة المحارب». كل الأطراف سلمت بعجزها عن محق الآخر من الوجود. لذلك فالغرب يحتكم إلى توازن بين مجموعة من السلط المؤثرة، منها سلطة الديني، وسلطة السياسي،

الهوية فخ كبير، وحجاب نختفي من ورائه، بغرض التنصل من مسؤولياتنا الأخلاقية في الكون.

وسلطة المعرفي، وسلطة الفني، وسلطة الإعلامي. هذه السلط متجاورة تحت سقف العلمانية، تمر بفترات سلم، كما تعرف فترات توتر فيما بينها. والمسيحيون، على سبيل المثال، يساهمون في كل شيء في الحياة العلمية والعقلية والفنية والسياسية، لا يجوز بأي وجه من الوجوه القول بأنه تم هزم اللاهوت في الغرب. يمكن القول بأن العلاقة بالدين والتدين قد انتقلت من طور هيمنة الكنيسة على كثير من مناحي الحياة، إلى طور التأقلم مع المجتمع الحديث، حيث فقدت بعض صلاحياتها كمؤسسة ذات نفوذ في المجتمع .

أما بخصوص الأزمة التي يشهدها الغرب اليوم على إثر جائحة كورونا، ودورها في رد الاعتبار إلى المشترك الإنساني عوض الانكفاء على الذات، فهذا أمر قد يحتاج التفصيل فيه إلى كلام كثير. لا بأس أن نختصر فنقول: إن العقد الأخير عرف انكماشا واضحا ونكوصا إلى مواقع الدفاع عن الهوية الأوروبية، خوفا من الغزو الخارجي، هذا بعد أن كان ديدن الخطاب الغربي، الأوروبي خصوصا، هو التعدد والتنوع الثقافي ودورهما في تعزيز السلم العالمي وإغناء الثقافة الكونية. من مظاهر هذا النكوص بروز أحزاب يمينية متطرفة تعمل على تقويض أسس المجتمع المتعدد. ويعزى بروز هذه الأحزاب إلى أمور كثيرة، يأتي على رأسها الخوف من فقدان السيادة على الدولة القومية، وهو تخوف له ما يبرره من عدة وجوه .

هناك خوف من المجهول الذي يتربص بالقارة العجوز في عالم يتحرك بسرعة فائقة. يخشى الكثير من الأوروبيين أن تضيع مكتسباتهم مع انتقال العالم من مرحلة الدولة السيادية، إلى مرحلة «حكامة جديدة» تكون السيطرة فيها لمن يملك الذكاء الاصطناعي والأسلحة الافتراضية .

أمام تنامي القلق والخوف من صعود الصين، يتوجه العالم الغربي إلى نوع من الهدنة مع «الإسلام». هناك مراكز تعنى اليوم بالبحث في سبل تعزيز كل أنواع الشراكة مع العالم الإسلامي، وهي تتوسل في هذا المسعى بـ «تحسين صورة المسلمين» وتخصيص ميزانيات محترمة للدراسات القرآنية والإسلامية، المقصود من ورائها هو مد جسور التواصل مع المسلمين، بغية استقطابهم كحليف استراتيجي لمواجهة المد الآسيوي الجارف. هذه بعض التوجهات العامة، وهناك توجهات أخرى طبعا لا نتوقف عندها هنا .

في هذا السياق يكتسي الحديث عن تجديد الخطاب الديني الإسلامي في أوروبا معاني مختلفة، باختلاف الإيديولوجيات المتصارعة. قد يتحدث عن تجديد الخطاب الديني الإسلامي من منطلق الحرص على تأهيل المسلمين، بوصفهم الفئة الدينية التي تأخرت في الالتحاق بالفضاء العلماني الأوروبي، تأهيلهم لفهم مكانة الدين في المجتمع العلماني، ثم إدماجهم في هذا المجتمع. هذا على خلاف كبير مع جهات أخرى يحركها اعتقاد راسخ في عدم مناسبة الإسلام لمقتضيات الثقافة الأوروبية، وهم يسهرون على أن يظهر المسلمون بمظهر المتطرفين الدينيين، الرافضين للاندماج، الأمر الذي يجعلهم يقصون ذواتهم بأنفسهم، ويكفون الآخرين عناء منعهم من الانتساب إلى السياق التاريخي الغربي .

هذا فضلا عن وجود أطراف كثيرة من العالم الإسلامي، كل طرف يريد إصلاح الإسلام وفق ما يخدم

مصلحته هو. إذاً الإصلاح الديني ورقة تحركها استراتيجيات وسياسات. أما الجالية المسلمة فجاهزيتها المعرفية لا تسمح بمباشرة أسئلة الإصلاح، تظل طاقاتها الفكرية خارج الحقل الديني المهيكل، بعيدة عن التأثير فيه. وظني أن أمر التحكم في الخطاب الإسلامي في الغرب هو الآن في قبضة شركات التكنولوجية، توجهه كما تشاء. وأما مساهمة المسلمين في الغرب في الإصلاح الديني فتظل مساهمات محتشمة، يطبعها التشرذم .هناك نخب تشتغل على تجديد الوعي الديني لدى المسلمين، لكن تأثيرها على «سوسيولوجيا الإسلام» في الغرب يظل تأثيرا محدودا جدا.

س 7: ما هي الإشكالات التي تواجهها العلاقة مع الآخر، وقد حدث الاختلاط بين الأجناس في كل مكان، واخترق الزمان والمكان أو ما يسمى بأسطورة الجغرافية، ماهي الإمكانات التي تملكها الثقافتان (الغربية والإسلامية) اليوم، لإنجاز الممكن بينها وتجاوز مقولة الصراع والهيمنة وشبكة المفاهيم المغلقة والغامضة بين الثقافتين؟ وهل يمكن الحديث عن انفراج بين الثقافتين؟ وهل نحن على عتبة مرحلة جديدة بهموم وأسئلة مغايرة، نتجاوز فيها الأسئلة المزيفة بتعبير الجابري رحمة الله عليه، إلى أسئلة جوهرية، تمكن من التعاون الذي يحفظ حقوق الجميع؟

ج. أكبر تحدي مرتبط بالعلاقة مع الآخر هو معرفة أين تنتهي الذات وأين يبدأ هذا الآخر. هناك مقاربتان، مقاربة طهرانية يتم بموجبها رسم حدود واضحة المعالم بين الذوات والحضارات والثقافات؛ ومقاربة أخرى ترى بأن هذه الذوات والحضارات والثقافات ليست كتلا مستغلقة على التأثيرات الخارجية. الأولى تعدنا التطهير، تطهير الذات من عوالق وشوائب الآخر؛ والثانية تستحثنا على القبول بالاختلاف والتعايش مع حضور الآخر فينا .

قد نطرد الغزاة والجيوش والآخر من فضائنا، لكن بصمة الإنسان في هذا الفضاء باقية لا يمحوها التاريخ. تعلق في الهواء، في اللغة، في الغرس، على الجدران. هذا يذكرني برواية «يد فاطمة» للأديب الإسباني «إلدفونسو فالكونيس دي سيي (*Ildefonso Falcones de Sierr*) بينما الكاثوليك يخرجون المسلمين من الأندلس، يطردونهم نحو الضفة الأخرى، قام البطل بإخفاء نسخ من القرآن بين شروخ جدران مسجد قرطبة الذي تحول إلى كنيسة. في هذه الرواية الرائعة تأكيد على أن «الآخر»، المسلم في هذه الحالة، مخبوء بين ثنايا تاريخ الذات الإسبانية أو الأوروبية، يستحيل محقه من ذاكرة المكان ومن التاريخ .

> وجود أطراف كثيرة من العالم الإسلامي، كل طرف يريد إصلاح الإسلام وفق ما يخدم مصلحته هو. إذاً الإصلاح الديني ورقة تحركها استراتيجيات وسياسات. أما الجالية المسلمة فجاهزيتها المعرفية لا تسمح بمباشرة أسئلة الإصلاح.

هذا الأمر ينطبق على الفضاء الإسلامي كذلك. يستحيل تخليصه مما خلفه الإنسان المرافق للمستعمر من بصمة ثقافية. الذات مدخولة، شاء الإنسان أم أبى. حتى ونحن نعيش معزولين جغرافيا عن بعضنا البعض. فما بالك وأنت تجد نفسك في فضاء متعدد، جارك على اليمين مسيحي، وعلى الشمال بوذي، وأمامك يهودي، وخلفك إنسان لا دين له. أكثر الأنساق أخلاقا، في نظري، هي الأنساق التي تضمن تعايش هؤلاء جميعهم. إذا نظرنا إلى هذا التعدد على

أنه مكرمة من مكارم الأخلاق، فعلى العقل الإسلامي أن يجتهد بغرض تتميم هذه المكرمة. المسلمون في الغرب، وهم أقلية، يحمدون الله على نعمة التعدد هذه. ويخشون أن تنهار الأسس التي انبنى عليها، فيصبحون أول ضحية من ضحايا هذا الانهيار. والواقع أن هناك شعورا بوجود مؤشرات تدل على بعض أنواع التنكر لقيم التعدد من بعض الجهات المتطرفة.

المحور الرابع: الإنسان بين العلم والفلسفة والدين.

نطرح معكم في هذا المحور ثلاث رؤى معرفية، تختلف من حيث المرجعية والأفق والمسار وهي (العلم والفلسفة والدين)، ورغم أن الإنسان هو حجر الزاوية لهذه الرؤى، فقد تنازعته منذ القِدَم وما تزال إلى اليوم، فأنتجت شبكة من المفاهيم والمقولات دخلت في صراع مدمر لهذا الإنسان، ومجاله الإيكولوجي، ودخلنا في مرحلة وصفت بالعنيفة أو بعنف العالم كما يسميه ادغار موران، وقد حصل انقسام بين تلك الرؤى ـ أقصد العلم والفلسفة والدين ـ، وفقد الإنسان البوصلة في النجاة والسعادة الموعودة.

س 8: كيف تنظرون إلى القلق الحاصل من استقلال العلم عن الدين والفلسفة، خاصة وأن هذا جعل الدين أمام أسئلة الجدوى والمعنى؟

ج. القلق لا ينتج فقط عن استقلال العلم عن الدين والفلسفة، بل ينتج عن بعض محاولات المزج بين العلم والدين كذلك، كما هو الحال بالنسبة للإعجاز العلمي عند اليهود والنصارى والمسلمين. وأعتقد أن خطر بعض أشكال الدمج بينهما أكبر من الفصل بينهما .

يجوز لنا أن نقلق من استقلال العلم عن الدين والفلسفة حين يتحلل العلم من كل المقاصد الأخلاقية من وراء الاشتغال به فيصبح منظومة صناعية، تقنية، تكنولوجية ترسم أهدافها وتحدد غاياتها بناء على منطق الربح المادي الصرف، أو إرضاءً لحاجة العالم النفسية للظهور. العلم يحتاج إلى دين وتأمل فلسفي يكبحه ويحول بينه وبين التمادي في ملاحقة الأوهام، كوهم القدرة على «بسط الصناعة على الطبيعة»، هذا الوهم الذي يتأسس على عقل فلسفي فاسد يعتقد في إمكان «بسط العقل على الوجود». والدين لا وظيفة له سوى تذكير الساهرين على المنظومة العلمية بمغبة الانسياق وراء هذه الأوهام؛ يذكرنا بأن القوارع والكوارث تحصل جراء ما «تصنع أيدي الناس» وما «تكسب أيديهم». فالصناعة والكسب حين لا تنضبط بضابط ولا تلجم بلجام يمكن أن تجلب المضرة أكثر من أن تدفعها .

> لن يكون هناك تجاور أو تعايش حقيقي إلا إذا انخرطت وسائل الإعلام انخراطا فعليا في الترويج له حتى يصبح صورة قارة في الأذهان والمخيلات.

لكن العلم يحتاج إلى تفرغ ذهني وتركيز قد تشوش عليه بعض أشكال التدين الزائفة، وأشكال الفهم السطحي للأمور. من يقرأ «البصريات» لابن الهيثم، مثلا، يجد فيه قدرة عالية على التركيز ولغة علمية راقية تنم عن ثقافة علمية رصينة. فلسنا نحتاج إلى أن يكون العالم في المجال التقني والتكنولوجي واعظا دينيا؛ ما نحتاجه منه هو تحريك رحى المعيشة خدمة لغايتين اثنتين في الكون، ألا وهما «متاع الإنسان واستقراره إلى حين»، لا طمعا في الخلود .

كثير من العلم اليوم يجلب مصالح للبشرية، يخفف الآلام عن العباد، يفتح أمامهم أبواب التنعم في الوجود...المشكلة الحقيقية تكمن في رأس المال الذي يتحكم في المنظومة العلمية، يجعل من العلم مصدرا من مصادر الاستكثار من الربح، عوض أن يسخره لخدمة الإنسان .

العقل العلمي الصناعي لا ينضبط من الداخل، بل يحتاج إلى ما به ينضبط من الخارج. وهنا يأتي دور الدين مثلا. التأمل قد يساهم في إمداد المنظومة العلمية بكوابح تكبحها عن التمادي في العبث. ليس الإنسان في حاجة إلى صناعة آلة إلكترونية يكسر بها فستقا، على سبيل التمثيل. الدين قد يساهم في تطوير حس ثقافي نقدي يوجه السلوك البشري بحيث يجعل الإنسان ينأى بنفسه عن إنتاج واستهلاك منتوجات تكنولوجية لا قيمة لها سوى كونها «جديدة». جدة الشيء أصبحت معيارا في المسارعة إلى اقتنائه لا الحاجة إليه .

باختصار شديد، لم يتغير شيء في علاقة العلم بالدين عبر التاريخ. العلم ظل مثله مثل سكين في يد إنسان، يصنع بها ما يشاء، إما خيرا أو شرا. والدين يضع هذا الإنسان أمام مسؤولياته الأخلاقية، لا أكثر .

س9: أشرتم في مقالة لكم إلى قصة النحلة والفلسفة. ما العلاقة بين عالم الحشرات والتأمل الفلسفي العقلي التجريدي؟ هل هو إيحاء بعجز العقل الفلسفي في أن يخطو خطوات النحل؟ ماهي دلالات هذا الربط؟

ج. النحل منذ أن وجد وهو يقوم بنفس الوظيفة، لا يحيد عنها: يعطينا عسلا، منتوجا من أقرب المنتوجات الطبيعة صناعة، وأقرب المنتوجات الصناعية طبيعة. هذا المزج بين مقتضيات الصناعة والطبيعة ظل على امتداد التاريخ مثار إعجاب الإنسان. لكن الإنسان، على خلاف النحل، لا يأمن وهو يُصنِّع ويَصنع أن يهدم التوازن والعلاقة بين الطبيعة والصناعة. لذلك وجدنا الكثير من معاصرينا ينادون بالتنمية المستدامة، والمقصود منها هو تنمية تراعي تجدد البيئة، عوض الإجهاز عليها .

العلم ظل مثله مثل سكين في يد إنسان، يصنع بها ما يشاء، إما خيرا أو شرا. والدين يضع هذا الإنسان أمام مسؤولياته الأخلاقية، لا أكثر.

إن علاقة النحلة بالصناعة والطبيعة، هي علاقة الإنسان بالبداوة والحضارة كما نقرأها في نظرية العمران لابن خلدون. يقسم بن خلدون مراحل تطور العمران البشري إلى ثلاثة مراحل، مرحلة البداوة، ومرحلة العمران البدوي، ومرحلة العمران الحضري. فالإنسان مدفوع بالفطرة إلى الخروج من البداوة، طلبا للحضارة. لكن التمادي في التحضر يدخل بالإنسان مرحلة الاحتضار، أو نقطة وقوف في تاريخ الأمم بتعبير ابن خلدون نفسه. والمطلوب هو «عمران بدوي»، أي فعل تعمير، وتصنيع، لا ينقطع عن البداوة أي الطبيعة. هذا المزج بين البداوة والعمران، مثل مزج النحلة بين الصناعة والطبيعة، هو ما يضمن شروط بقاء العمران البشري. لكن الإنسان ليس مبرمجا، مثلما هي النحلة، ليلتزم بالحالة البيولوجية الطبيعية؛ بل قد يشتط ويبالغ، فيحصّل الآفات من حيث يظن أنه يجلب المنافع.

س10: كلما تقدم العقل في البحث العلمي، كلما اتسعت دائرة المجهول، وشَعُرَ الإنسان بالخوف وقلق المصير وضنك العيش. ماذا يمكن أن تقدمه الرؤية الدينية للبحث العلمي والفلسفي في هذا السياق؟ وهل نحتاج بلغة الجابري وطه عبد الرحمن إلى البرهان والعرفان والبيان مجتمعة لتجاوز أعطاب العقل الحداثي وتصدعاته؟

ج. قديما قال الشاعر:

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني

سعي الفتى وهو مخبوء له القدر

المخبوء من القدر كان وما يزال مصدر كل قلق وخوف يراود الإنسان ويملك عليه نفسه. حتى مع تطور العلوم والمعارف، لا شيء تغير. ذلك أن الاستزادة من العلم لا تزيد الإنسان علما فحسب، بل تفتح أمامه قارات غير مكتشفة. العلم يجب أن يفضي إلى حكمة، يدرك معها الإنسان أنه بقدر ما يعلم فهو «لا يعلم» كذلك. هذا هو عين الحكمة. وضدها الجهل، الذي هو الاكتفاء بما نعلم، والظن أن الاستزادة من العلم تدنينا من الإحاطة بحقيقة الأشياء .

من اللطائف القرآنية أن الله عز وجل خاطب الملائكة قائلا لهم: «إني أعلم ما لا تعلمون»، ولم يقل سبحانه: «إني أعلم ما تجهلون». فرق شاسع بين «عدم العلم»، و «الجهل». الجهل فيه إصرار على التمادي في الغي، هو موقف اكتفاء. أما عدم العلم فملازم للعلم، لا ينفصلان .

أما قضية البيان والبرهان والعرفان فهي من القضايا التي لم تعد تؤسس لخطاب معرفي فلسفي في سياقنا اليوم، لقد استنفذت أغراضها. ساهمت في تحريك راكض الثقافة والفكر في العالم العربي والإسلامي. كانت جزءاً من صراع مشاريع النهوض، هذه المشاريع التي كانت تضمر الشمولية، بحيث كانت تسعى إلى تفسير أسباب السقوط وتعيين أسباب النهوض، يقول لنا أصحابها: لهذا السبب تخلفنا، وهكذا سننهض، زمن هذه المشاريع انتهى. نحن اليوم أمام تحديات جديدة، أمام أجيال ثقافتها ثقافة رقمية، وعيها بالتاريخ مختلف عن وعينا به.

> نحن اليوم أمام تحديات جديدة، أمام أجيال ثقافتها ثقافة رقمية، وعيها بالتاريخ مختلف عن وعينا به

بعض المسلمين وهم في عقر الحضارة المتقدمة يفكرون في كيفية النهوض، لا يصدرون عن انتسابهم إلى العالم الحديث، حتى وهم يساهمون في تطويره. العالم أصبح مفتوحا. التقدم والتأخر ليس وصفة نظرية، إنما هو قضية عزائم تختصم في سياقات تاريخية. هب أننا فسرنا أسباب السقوط وقمنا بتعيين سبل النهوض، من الناحية الفكرية والعقلية! هل يكفي هذا لتحقيق عملية إقلاع حضاري وإصلاح مجتمعي! الأمر أعقد من أن يحتاج إلى مجرد معادلة رياضية.

المحور الخامس: الإسلام وأسئلة الحضارة الإنسانية المعاصرة.

س 11: كيف يمكن استثمار الثقافة الإسلامية من خلال مرجعيتها في [القرآن والسنة] لتدبير الاختلاف وبناء الائتلاف بين متعدد الثقافات في الحضارة الإنسانية المعاصرة، أو ما عبر عنه طه عبد الرحمن بالانتقال من القيم المتصادمة بين مكونات هذه الحضارة إلى القيم المتصادفة التعارفية التعاونية بينها؟

ج. حين نتحدث عن الثقافة الإسلامية، كثيراً ما نتوهم أنها وحدة متجانسة، تنطق بلسان واحد. والحال أن لكل طائفة، ولكل فئة، ولكل أصحاب معتقد، ولكل بلد، قراءته الخاصة لهذه الثقافة. لذلك فلا يمكن للثقافة أن تكون ذات ماهية تؤهلها لتساهم في بناء التعدد أو تقويض أسسه، بل إن بناء التعدد منوط بعزائمنا وبوعينا بأهميتها وحرصنا على بلوغه ثم التضحية من أجل إعلاء قيمه، ولن نعدم من داخل الثقافة الإسلامية من يطوع النصوص لتقويض أسس التعدد.

ولعل ما ينطبق على الثقافة الإسلامية، ينطبق كذلك على الثقافات الأخرى. لو أخذنا الثقافة الغربية، لوجدناها شيعا متفرقة، منهم من يبشر بالتعدد الثقافي، يدين به ولا يرى بديلا عنه؛ ومنهم من يتنكر لقيمه. هناك سجال يعتمل داخل كل حيز ثقافي. واليوم أصبحنا مطالبين بالتحالف مع غيرنا ممن يحملون فكرة التعدد، وإن كانوا لا ينتمون إلى ثقافتنا، كما أصبحنا لا نقتسم نفس الأرضية المفاهيمية مع من ينتسبون إلى الثقافة الإسلامية، الأمر أعقد مما نتصور، والخطر كل الخطر هو في محاولة تجميد الآخر، باعتباره ماهية لا تتحرك، أو موضوعاً نحمل عليه ما نريد من الصفات التي لا تتغير، كأن ننسب إليه الخيرية مطلقا، أو الشر مطلقا.

الثقافات في لحظات ضعفها تنكمش على ذاتها، تخشى التعدد والتنوع، ومرد خشيتها هو عدم القدرة على استيعاب الآخر. لكن في لحظات قوتها، حيث تستطيع استيعاب هذا الآخر، تراها تؤمن بالتعدد وتبشر به. الثقافة الإسلامية أنتجت لنا كل من ابن عربي وابن تيمية. واحد يدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه، ويجعل من الحب لحمة يلتحم بها مع الآخر؛ والآخر يقول لمن يسأل عن عقيدته أن عقيدته لا تقبل حتى الاستدلال بأقوال الشعراء، مثلا، ناهيك عن الاستشهاد بـ «الكفار».

الثقافات في لحظات ضعفها تنكمش على ذاتها، تخشى التعدد والتنوع، ومرد خشيتها هو عدم القدرة على استيعاب الآخر. لكن في لحظات قوتها، حيث تستطيع استيعاب هذا الآخر، تراها تؤمن بالتعدد وتبشر به.

هذان العلمان يمثلان فترتين من فترات التطور في تاريخ الثقافة الإسلامية. فترة الاقتدار على استيعاب الآخر؛ وفترة التوجس من الآخر. فترة الانفتاح، وفترة الانغلاق .

هذا الأمر ليس عيبا، كما قد يذهب البعض إلى الفهم. بل هو ملازم للثقافات كلها، حيث نجدها تنكمش على ذاتها أوقات الشدة والتحديات الخارجية والخوف من الخطر الداهم؛ كما نجدها تنفتح على الآخر لثقتها في قدرتها على استيعاب الآخر داخل حيزها. الدليل على هذا الأمر هو الولايات المتحدة الأمريكية وما تعرفه من انكماش عقب أحداث الحادي عشر من شتمبر. أذكر أن ساموبل هانتغتون قد كتب مباشرة بعد هذه الأحداث كتابه «من نحن؟» ليعيد التأكيد على خصوصيات المجتمع الأمريكي، في تنكر تام لمبدأ التعدد والتنوع الثقافيين الذي كان الجميع يتغنى به. الثقافات تمر بلحظات قوة ولحظات ضعف، وتلبس لكل لحظة لبوسها، إما انغلاقا وإما انفتاحا. ليس هناك ثقافة يلازمها الانفتاح، وأخرى يلازمها الانغلاق.

لكن مسؤولية الإنسان الأخلاقية، وهي مسؤولية جسيمة، تكمن في الحفاظ على جذوة التعدد

الثقافي مشتعلة في نفوس العباد، باعتماد خطاب إنساني يدعو الناس، كافة الناس، بغض النظر عن انتماءاتهم، إلى كلمة سواء وإلى التعاون على البر والتقوى. الأمر ليس بالهين السهل، لكن على المرء أن يحاول.

س 12: تحدثتم عن فلسفة موصولة بالوجود الأصيل المعطى الموهوب، وعن فلسفة مادية صرفة مقطوعة الصلة بالزمن الموهوب. ما الفرق بين الفلسفتين؟ وما يمكن أن يمنحه الإسلام للفلسفة الحضارية الإنسانية المعاصرة، خصوصا على مستوى الرؤية والنماذج (*paradigmes*)، للإجابة عن الأسئلة الكبرى؟

ج. الفرق بين الفلسفة الموصولة بالوجود المعطى الموهوب، والفلسفة المقطوعة عن هذا الوجود، هو كون الأولى تعتبر المكان مجالا للإمكان، فالممكن من الناحية العقلية لا يخرج عن المكان، فضاء الكينونة. يمكننا أن نقول بلغة أقرب إلى لغة الشعر أن هناك علاقة بين المكان والكينونة والإمكان، أي إمكان تطوير هذه الكينونة فيما يمكن أن يتيحه المكان. بعبارة أخرى، هذه الفلسفة لا تروم ممكنا خارج حدود الزمن والمكان المعطيين، المخلوقين. هذا على خلاف فلسفة مادية توهم المشتغل بها أن بمقدوره تصور إمكان أو ممكن خارج حدود المكان، وكأن الإنسان يريد أن يخلق وجوداً آخراً، عوضا عن الوجود الأصلي المعطى.

الفرق جوهري بين الفلسفتين. الأولى تروم تحسين ظروف عيش الإنسان في العالم، وهي تطرح سؤال كيف نُعمِّر هذا العالم، بلغة ابن خلدون. إنها تفضي إلى فلسفة تعمير، والتعمير يفيد معنيين، تعمير المكان، أي ملؤه، وتعمير الزمن، من العُمُر، أي أن يُعمِّر الإنسان، فالتعمير يفضي إلى الامتلاء، والامتلاء يوحي بالنهاية. من هذا المنطلق فالمعمر مقتصد، يقتصد في فعل التعمير، يخشى أن يسقط في آفة «التطاول في العمران»، هذا الذي يسميه جغرافيو المدن أمثال لويس مامفورد الأمريكي بآفة «*Monumentalism*».

الفلسفة الثانية تروم تغيير العالم، الخروج به من طور «الفوضى» إلى طور «النظام». هذه الفلسفة تطرح سؤال «كيف نغير العالم؟»، وليس كيف نُعمِّر العالم؟». وكلما سعى الإنسان وفق هذه الفلسفة إلى محق ما يعتبره فوضى، جلب كوارث على نفسه من صنع يده وتدبيره، كوارث أعظم مما اعتبره فوضى في الطبيعة. هذه الفلسفة أوصلت البشرية إلى وضع غريب، أصبحت عنده أمام معادلة صعبة. يدرك كثيرون أن مشاكل البيئة مثلا أو مشاكل العالم تكمن في التكنولوجية، ويقفون أمام خيارين: إما مزيد من التكنولوجية لتخليص العالم مما أفسدته التكنولوجية؛ أو القطع مع هذه التكنولوجية. أصبحنا أمام معضلة كبيرة. يصعب علينا الرجوع إلى الوضع الطبيعي، كما نعلم أن التمادي في التكنولوجيا ليس هو الحل. هذا ما يورث كثيرين من العقلاء قلقا في سياقنا الثقافي اليوم.

> هذه الفلسفة تطرح سؤال «كيف نغير العالم؟»، «وليس كيف نُعمر العالم؟». وكلما سعى الإنسان وفق هذه الفلسفة إلى محق ما يعتبره فوضى، جلب كوارث على نفسه من صنع يده وتدبيره.

س13: في السياق ذاته ما الذي يجعل الإنسان دائما لا يقتنع بالدلالات المباشرة الواقعية للأشياء وماديتها، على الرغم من تجاذبيتها، ويتطلع إلى أفق أوسع وأعمق منها (الغيب)، وهو ما عبرتم عنه بالزمن المادي الذي يَسِمُ

حياة الإنسان، وانتقدتم أسسه وخلفياته. ما سر هذا الأفق اللامرئي وكيف يمكن أن يجعل الإنسان في مأمن من مخاطر الزمن المادي، ومن قلق في الحضارة الإنسانية؟

ج. حين نسمع الباب يُطرق، نسأل: «من الطارق؟» فالطرق ينبه الأذن على موجود غائب يخفى على الأنظار، لا يتعين، أن لا ينتصب أمام العين. السمع حاسة تُوسّع آفاق إدراك الإنسان، هي وسيلته لاستشراف الغيب والتنبه إليه. الوحي يخاطب الأذن، يحيلنا على تدبر أبعاد خفية تزيد الوجود سعة ورحابة. هذا على خلاف النظر، الذي يحد من آفاق إدراك الإنسان، بحيث يحصر هذا الإدراك فيما هو مرئي متعين ماثل أمام العين .

حين نتأمل لوحة الفنان الإيطالي رفائيل «مدرسة أثينا» نرى أفلاطون وهو يشير بإصبعه إلى السماء، إلى جانب أرسطو وهو يشير بيده إلى الأرض. الأول يؤمن بأن الحقيقة متعالية، لا ترى بالعين، وإنما نسمع عنها. والثاني يحيل على الأرض كفضاء لتعين الحقائق. الأول يمثل نزعة مثالية، والثاني يمثل نزعة واقعية. وهذا الصراع هو في حقيقة الأمر صراع بين حاستين، حاسة السمع وحاسة النظر. هذا ما تنبه إليه نيتشه في «هكذا تكلم زرادشت»، حيث يحكي كيف أن زرادشت لما نزل من الخلوة وجد مخلوقات مشوهة، منهم من تدلت أذنه حتى أخفت جسمه كله، ومنهم من جحظت عينه حتى اختفى من ورائها. يريد نيتشه بذلك أن ينبه على أن إنسان الحداثة معطوب، تضخمت عنده حاسة واحدة على حساب الحواس الأخرى .

هذا الإنسان المعطوب لا يشعر، أي أن بعض حواسه معطلة. ولذلك تجده إما يحسن السمع، إلى درجة أنه لا ينظر إلى الأشياء المتعينة في واقعه؛ وإما يحسن النظر، إلى درجة أنه يصم عن سماع ما ينبهه على الغيب. وحين يختفي الشعور، أي اشتغال الحواس مجتمعة، يكون ذلك إيذانا بقرب حصول الكوارث والقوارع. هذا ما نقرأه في أكثر من مقام في القرآن الكريم، حيث نجد أن حصول القوارع مرتبط بوضع يكون الناس فيه «لا يشعرون»، «وهم لا يشعرون».

هذا الإنسان المعطوب لا يشعر، أي أن بعض حواسه معطلة. ولذلك تجده إما يحسن السمع، إلى درجة أنه لا ينظر إلى الأشياء المتعينة في واقعه؛ وإما يحسن النظر، إلى درجة أنه يصم عن سماع ما ينبهه على الغيب.

الإنسان الذي أمده الله بوسائل الشعور لا يغفل بعد الغيب، ذلك أن حس السمع عنده مرهف، متيقظ؛ كما أنه لا يغفل بعد الواقع، ذلك أن حس النظر عنده مرهف، متيقظ كذلك.

شكرا دكتور خالد على حسن تفاعلكم.

- العفو

مركز دراسات المعرفة والحضارة

maarifa-center.com.....

maarifa2011@ gmail.com

facebook.com/almaarifa.centre

جميع الحقوق محفوظة© 2020

All rights reserved © 2020

لجنة الإعلام والتواصل